جلال العظم ، صادق (دكتور) ، دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية (بيروت، دار الطليعة ، ١٩٧٠)

(١)

يكتسب كتاب صادق جلال العظم أهميته الاساسية من خلال قدرته للتصدي النقدي لمجموعة من المنطلقات والمعايير الفكرية الخاطئة ، التي تسود اليوم نمط معالجتنا الفكرية والسياسية . هذه المنطلقات والمعايير التي برهنت هزيمة حزيران على فسادها وتهافتها . ولكنها ، مع ذلك ، ما زالت تهيمن على حياتنا السياسية . ذلك لان القوى الاجتماعية التي افرزت هذه الاساليب والمنطلقات **ما زالت تمارس دورها السياسي المتخلف رغم تخاذلها وسقوطها التاريخي المعروف** . ويعود سبب استمرار هذه القوى ، في الدرجة الاولى ، الى تفكك وضعف القوى الوطنية الجديدة التي ما زالت في طور التكوين الجنيني .

ونحن نستطيع ، مع التجاوز ، ان ننظر الى كتاب العظم ، باعتباره يعبر ، من زاوية معينة ، عن مستوى القوى الاجتماعية الصاعدة (بكل ما يحمله هذا المستوى من حماسة وايجابية وقصور) في تصديها للقوى الاجتماعية السائدة في الواقع العربي وصراعها معها على الجبهة الايديولوجية . ومن هنا يكتسب هذا الكتاب اهميته النقدية والسياسية .

يرى العظم في مقاله « كيف نفهم تاريخ الشعب اليهودي ؟ » بأن نمط العقلية التي ما زالت تسيطر على الحياة العربية « محافظة اكثر منها ثورية » في كافة مستوياتها . وتشكل النظرة الشائعة الى تاريخ الشعب اليهودي افضل نموذج لنمط العقلية العربية المحافظة الشوفينية . فهو يحدد لنا عناصر هذه النظرة بأنها « خيالية ناتجة عن تراكم مجموعة من الاساطير الدينية والقصص المتداولة ، والانطباعات الفجة والاسقاطات الذاتية والنفسية عن الواقع الخارجي . وبعد ان اعطيت طابع الشمول والرصانة ... » (دراسات يسارية ص ١٠) . وبعد ان يستعرض العظم بعض النماذج التطبيقية لهذه النظرة اللاتاريخية السائدة عند الخربوطلي ودروزة وغيرهم من الكتاب العرب يلخص لنا في النهاية محتوياتها في نقطتين رئيسيتين :

١ ــ « يشكل اليهود ، منذ البداية حتى اليوم ، جماعة بشرية متجانسة تماما تتصف بخصائص جوهرية ثابتة » . ويجد العظم ان هناك عنصرا مشتركا يوحد بين تصور النظرة الشوفينية العربية الرجعية وبين النظرة الصهيونية العنصرية الى التاريخ اليهودي في هذه النقطة بالذات .

٢ ــ نعت العقلية العربية السائدة لاسطورة الطبيعة اليهودية الثابتة بمجموعة خصائص وخصال اخلاقية شائنة لا تتغير ولا تتحول . اما النتيجة المنطقية لمثل هذا التصور المثالي فهو « النزوع نحو الحل الفاشستي او الهتلري للمسألة اليهودية». ذلك لانه ، تبعا لهذه النظرة ، اذا كان الشعب اليهودي بجوهره الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل « شرير وشاذ ومفسد .. في كل مكان وزمان .. يغدو الامل في اصلاح هذا الواقع في حكم المستحيل .. » . ويضع لنا الكاتب مقابل هذه النظرة الشوفينية اللاتاريخية ، التفسير المادي التاريخي لفهم المسألة اليهودية كما أوردها ماركس في كتابه عنها . وقد لخص الكاتب تفسير ماركس لها بالنقاط التالية :

١ ــ رفض التفسير المثالي الذي « يرد بقاء الشعب اليهودي المشتت الى الروح الجماعية اليهودية.. او عقيدة شعب الله المختار .. » .

٢ ــ لتفسير التاريخ اليهودي « ينبغي الا نبدأ بالدين او غيره من اجزاء التركيب الفوقي بل بالوظيفة الاقتصادية والاجتماعية التي كان يقوم بها اليهودي في حياة مجتمعات تاريخية معينة » .

٣ ــ حل المسألة اليهودية حلا جذريا لا يتأتى الا « عبر التحرر الكامل للانسان اليهودي وغير اليهودي على حد سواء من النظام الرأسمالي الطبقي القائم بطبيعته على الاستغلال والقهر » .

ويستطرد الكاتب للبرهنة على تفاعل اليهود في مختلف البيئات التي كانوا يعيشون فيها ، مستعينا في ذلك باستشهادات تاريخية تطبيقية من كتاب ابراهيم ليون « المفهوم المادي للمسألة اليهودية » وسواه من الكتاب . وذلك بهدف دحض فكرة العزلة **المطلقة** التي عاشها اليهود . فهو يرى ، مثلا ، ان هذه العزلة التي عاشها اليهود في المجتمعات الاقطاعية اللامركزية كانت سمة عامة و« جوهرية من سمات التنظيم الاجتماعي المعمول به في تلك المجتمعات والاوقات (حارة الاكراد ، حارة النصارى ، حارة اليهود ، جبل الدروز ، جبل العلويين الخ..) ». وبناء على هذه النظرة التاريخية العلمية يمكننا ان